أهمية كتب الفقه في الدراسات التاريخية
كتاب المعيار للونشريسي نموذجا

زاهي محمد
جامعة تيارت

Abstract:

Absorbed doctrinal books much of the historical information contained in books and historical dictionaries, and is still waiting for researchers, much has not been studied yet, to extract historical information from them which is that scope and broad includes worship and social relations and transactions, and their respective fields in extends to all the sons of the nation, but not limited to a particular class or a specific group, and included these books on historical information.

As we content ourselves with reference to it I just to draw attention to the wealth of the rich that have not been studied, although absorption of merit, including the most important late doctrinal books on fatwas and times of calamity and the substance of the novel, and was characterized by a deep analysis.

Keywords:

Historical information - Historical dictionaries – Social relations – Midwest- Religious history.

استوعبت الكتب الفقهية كثيرا من المعلومات التاريخية التي ترد في الكتب والمعاجم التاريخية، ولا يزال ينتظر الباحثين الكثير مما لم يدرس بعد

المنارة للاستشارات

لاستخراج المعلومات التاريخية منها وهي التي نطاقها واسع يشمل العبادات والعلاقات الاجتماعية والمعاملات، وميدانها عام يمتد إلى كافة أبناء الأمة دون الاقتصار على طبقة معينة أو جماعة محددة، واحتوت هذه الكتب على معلومات تاريخية.

ونحن إذ نكتفي بالإشارة إليها فإنما للفت النظر لثروتها الغنية التي لم يتم استيعاب دراستها بالرغم من جدارتها، وما أهم الكتب الفقهية الكتب المتأخرة من كتب الفتاوى والنوازل وما فيها من مادة مستجدة، وما تميزت به من تحليل عميق وتحليل رائع...[1]

وقد اشتهر في الجزائر والمغرب الإسلامي في القرن التاسع الهجري (القرن 15م) المؤلف أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي صاحب كتاب "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب" الذي ولد في عام 834هـ/1428م بجبال الونشريس ونشأ بتلمسان حاضرة الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط.[2] وأخذ عن كبار أعلامها كشيخ محمد بن العباس، والعالم أبي عبد الله الجلاب، والعالم الخطيب الصالح ابن مرزوق الكفيف والإمام قاسم العقباني وولده أبي سالم وغيرهم،[3] ووقعت له محبة في سنة 874هـ/1469م لما بلغ من العمر الأربعين سنة وقعت له مشكلة مع سلطان الدولة الزيانية أبي ثابت، اضطرته للفرار إلى فاس بالمغرب الأقصى، فاستوطنها وكان عالمها ومدرسها وفقيها إلى توفي فيها سنة 914هـ/1508م.[4]

ويذكر شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله في كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر (16 – 20م)" "أن قيمة المعيار لا تظهر فقط في كونه موسوعة للفقه المالكي في المغرب والأندلس ولكن في القضايا الاجتماعية والسياسية والعلمية التي تحتوي عليها... وأجدر بالجزائر أن تحتفل بصاحبه وأن تهتم بآثاره، وأخرى بالدارسين أن ينكبوا

المنارة للاستشارات

عليه، كل في ميدانه، ويستخرجوا منه خمائر المجتمع في ذلك العهد للاستفادة منها اليوم"[5]

ويقول عنه المؤرخ محمد الأمين بلغيت "فكتابه الهام" المعيار المغرب والجامع المغرب، عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب، يمتاز بنوازله الكثيرة التي تبرز الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعقائدية والفنية التي كان عليها المغرب الإسلامي"[6]

وكان لي الحظ في التعرف على الأهمية التاريخية لكتاب المعيار للونشريسي لما كنت أحضر للحصول على شهادة الماجستير حيث وفقني الله من خلال إطلاعي على الجزء السابع من المعيار المسمى "بنوازل الأحباس"، باستخراج عدة حقائق تاريخية عن التاريخ الديني والثقافي والاجتماعي والعسكري للمغرب الإسلامي.

ويمكن تحديد هذه المعلومات التاريخية على حسب المجال الخاص بها كما يلي:

- **ففي المجال الديني:**

نستخلص من خلال النصوص العديدة التي ذكرها الونشريسي في المعيار مدى اهتمام المجتمع في المغرب الإسلامي والأندلس بالمساجد ومدى أهميتها في حياتهم الدينية، فهو يعطينا فكرة صحيحة عن حالة المساجد وما كانت تحتوي عليه من الداخل، حيث يذكر الونشريسي أنه تم الاهتمام بتزيين المساجد وإمدادها بالماء للوضوء وطلاء جدرانها وفرشها بالسجاد والحصر، وتوفير زيت للوقود،[7] وكانت بعض المساجد تزين بثريات ومصابيح الزاج العراقي[8] ومنها ما كانت تنصب فيها الشموع والقناديل المرتبة، وتعلق فيها الستور،[9] حيث جاء في صفحة 272 من الجزء السابع النص التالي:"...تزيين المساجد بالشمع والقناديل لا بأس به لأنه نوع من الاحترام والإكرام وكذلك

المنارة للاستشارات

الستور إن كانت من غير الحرير تلحق بالتزيين بقناديل الذهب والفضة"[10] وهذا النص دليل على إجازة فقهاء المغرب الإسلامي والأندلس تزيين المساجد.

وثمة حقيقة أخرى ذكرها الونشريسي عن مدى اهتمام سكان المغرب الإسلامي لتسهيل أداء فريضة الحج إلى البقاع المقدسة، عن طريق إنشاء استراحات للحجاج، والتي كانت موجودة على طول خط الطرق الكبرى فما بين الحواضر الإسلامية الممتدة من مراكش إلى مكة، وكانت تشتمل على أماكن لراحة الحجاج والمسافرين، وكثيرا ما كانت هذه الاستراحات تقدم الطعام والماء لنزلائها والعلف لدوابهم مجانا. ويتضح ذلك من خلال النص التالي:"والحجاج كل عام يطرقون بلدتكم فإن خيف عليها ضيعة أو يد عادية أشتري بها ريع ووقف لهم"[11]

- **أما في المجال الاجتماعي:**

يذكر لنا الونشريسي في المعيار مدى تفنن المجتمع في المغرب الإسلامي والأندلس في مساعدة المحتاجين والفقراء ومدى اهتمامهم بالتضامن الاجتماعي من خلال المؤسسات الخيرية الوقفية التي كانت منتشرة في جميع القرى والمدن بالمغرب الإسلامي والأندلس حيث جاءت نصوص عديدة تدل على ذلك، فقد نصت إحداها بأن تصرف مداخيل الوقف مقادير من الطعام في كل يوم من أيام رمضان على الفقراء والمساكين.[12]

كما أوصى رجل بفدان من الأرض الزراعية يكون حبسا على المساكين بعد وفاته تؤخذ من مداخلها ويشتري به خبز يوزع على الفقراء والمساكين في شهر رمضان.[13]

ومن أغرب القصص التي ذكرها الونشريسي فيما يخص تفنن المسلمين في تلك الفترة في مساعدتهم لبعضهم البعض، ومدى انتشار أصحاب النفوس الخيرة، يذكر فيها أن أحد المسلمين بالأندلس من مدينة قمارش وجد

المنارة للاستشارات

خمسة دنانير فضية، والتي بقيت عنده ثلاثة أشهر، ولما لم يجد لها طالبا، أعلم بذلك فقيه وإمام تلك القرية، وأتفق معه أن يشتري بهذه الدنانير أشجار مثمرة موجودة في طريق القرية المذكورة وتحبيسها على المارين الطريق.[14]

- **أما في المجال الصحي:**

يتضح لنا من خلال النصوص العديدة التي ذكرها الونشريسي، عن مدى التطور الذي عرفته بلاد المغرب الإسلامي والأندلس في المجال الصحي، خاصة منها الأندلس، فقد ذكر لنا الونشريسي قصة عجيبة عن بعض المرضى الوافدين إلى قرطبة من غير المسلمين ويقصد بهم من الأوروبيين المتواجدين في بلاد الأندلس وخارجها، والذين أرادوا الاستفادة من أوقافها المحبسة على مرضاها إذا أقاموا بالمدينة أربعة أيام وقالوا أنهم يريدون الاستيطان بها.[15]

وذلك يعود لأن الخدمات الصحية التي تقدمها المراكز الطبية الموجودة بقرطبة عاصمة الأندلس من علاج وعمليات وأودية وطعام كانت مجانا، بفضل الأوقاف التي كان المسلمون يرصدونها لهذه الأغراض الإنسانية والتي حرمت منها الدول الأوروبية في تلك الفترة.

ولعل من الطريف ما ذكره الونشريسي أنه كان يوجد في مدينة فاس وقف للمؤذنين الذين يسبحون الله بالتناوب طيلة الليل بأصواتهم الرخيمة ويسمى هذا المؤذن "بمؤذن المرضى". لأن المريض في أغلب الأحيان لا يستطيع أن ينام فلا يجد من يؤنسه سوى هذا المؤذن الذي يشجيه بصوته الرخيم.[16]

كما يؤكد لنا الونشريسي حقيقة تاريخية عن مدى التقدم الذي عرفه المغرب الإسلامي والأأندلس في المجال الصحي، حيث انتشرت المستشفيات الخاصة ببعض الأمراض منها: مستشفى الجدام الذي كان يجمع فيه الجدمون ويعزلون عن المجتمع، كي لا ينتشر داؤهم ، ونظرا لعجزهم عن

المنارة للاستشارات

العمل فقد خصص أحد المسلمين حبسا لصالح مرضى الجدام واشترط فيه أن الذي ينتفع به يجب أن يحصل على شهادة الأطباء بأنه مريض بالجدام.[17]

- **أما في الجانب الثقافي والعلمي:**

يتأكد لنا من خلال النصوص التي ذكرها الونشريسي في المعيار عن مدى اهتمام السلاطين والأمراء بالمغرب الإسلامي والأندلس، ودورهم الكبير في بناء المدارس والوقف عليها، ومدى اهتمامهم وتشجيعهم للعلماء، من خلال الإنفاق الوقفي عليهم، ويتضح ذلك من خلال حبس السلطان الواثق بالله أبو عبد الله محمد بن أبي عمران موسى بن يوسف بن عبد الرحمان بن يحيى بن زيان (804 – 813هـ/ 1401 – 1411م) على "عالما من العلماء وحبرا من أحبار الإسلام، عقارا محتويا على جنات ومحارث وحمام واستذام عليه الإغتلال والانتفاع بذلك طول حياته".[18]

وبعد الإطلاع على الكتب التاريخية وكتب التراجم، فإننا نرجح أن هذا العالم الكبير الذي ذكره الونشريسي واعتنى به السلطان الزياني الواثق بالله لا يكون سوى العالم التلمساني سعيد العقباني[19] الذي ولد في 720هـ/1320م وتوفي سنة 811هـ/1408م.

كما يذكر لنا الونشريسي حقيقة تاريخية أخرى تتمثل في مدى الرعاية التي شاهدها طلبة العلم في المغرب الإسلامي والأندلس حيث كان يقدم لهم المسكن والمنح الدراسية، فكان للطلبة الوافدين على المدارس أوقاف مخصصة لسكناهم وأخرى للإنفاق عليهم ورعايتهم، إضافة إلى خدمة التعليم من طرف أشهر وأمهر العلماء والمدرسين، حيث أورد في أحد النوازل أن العالم سعيد العقباني التلمساني (ت 811هـ/1408م) أجاز لأحد الطلبة الذي يدرس في مدرستين، الحق من الاستفادة من مرتبات المنح المدرسية من

المنارة للاستشارات

كلا المدرستين.[20] وهذا دليل على مدى تشجيع المجتمع الإسلامي في تلك الفترة على نشر الثقافة والعلم من خلال تقديم المنح الدراسية للطلبة.

كما أشار الونشريسي إلى حادثة تاريخية تتمثل في توجه طلاب العلم من مدينة بجاية إلى مدينة ألمرية الأندلسية من أجل طلب العلم فخصص لهم حاكم المدينة مرتب من أموال الأحباس لمساعدتهم كمنحة دراسية إرفاقا بهم وعونا لهم.[21]

- **أما في الجانب الأمني والعسكري:**

فقد ذكر لنا الونشريسي عدة حقائق تاريخية عن دور المجتمع الإسلامي في تلبية حاجيات المجتمع الأمنية خاصة في الأندلس، ونحن نعلم أن الونشريسي عاش في الفترة الأخيرة لسقوط الأندلس.

وهكذا يمكن من خلال النصوص الكثيرة التي أوردها استنباط عدة حقائق عن الخطة الأمنية التي استخدمها المسلمون بالأندلس من أجل الدفاع عنها، لصد الهجومات التي كان يقوم بها الأسبان في حربهم ضد المسلمين من أجل طردهم من الأندلس.

ويؤكد لنا الونشريسي مدى أهمية الأوقاف كمورد مالي هام للنفقات الضرورية في مجال الدفاع عن العالم الإسلامي، ولا شك أن الرباطات [22]الكثيرة التي كانت تنتشر على ثغور البلاد الإسلامية [23] في القديم كانت تعتمد على الأوقاف، وكان الرباط مؤسسة تجمع بين وظائف التربية الدينية، وتأهيل المجاهدين، وإعداد العدة اللازمة من سلاح وطعام، وكانت تلحق بها أجنحة لصناعة الأسلحة.[24]

ويذكر الونشريسي أهمية الأوقاف في الأندلس، خاصة في فترة حروب الاسترداد الأسباني في مناطق الثغور الشمالية. فكان لازما الوقف على الثغور والحصون وحفر الآبار فيها وتوفير الخيل والسلاح للمجاهدين المسلمين.

المنارة للاستشارات

وكانت هذه الأوقاف خير معين على الجهاد وحماية الثغور ببناء الأربطة والمراكز في مناطق التماس مع العدو، فقد جاء في المعيار للونشريسي عدة حالات للوقف، وقف أصحابها أحباسا لصالح الثغور والأربطة الموجودة في شمال الأندلس، وقد جاءت الكثير من النوازل التي تشير إلى ذلك، فقد أوصى أحد المحسنين من جنوب الأندلس وبالتحديد من جزيرة طريف:"...في مرضه الذي توفى منه بوصية جمعت أشياء منها، أن يحبس على ثغر من ثغور المسلمين سماه، الفندقان اللذان له، تنفق غلتها هناك مادامت الدنيا..."[25]

وهذا النص الوارد في كتاب المعيار دليل قاطع على مدى تماسك المجتمع الأندلسي ومدى تقديمهم للمساعدات من أجل صد هجومات الأسبان.

كما يذكر لنا الونشريسي عدة نصوص توضح لنا مدى تشجيع الفقهاء والعلماء في الأندلس على الإكثار من الأوقاف على الثغور وتقديم الدعم للمجاهدين لأن القصد إعانة الثغر في الجملة وحمايته، وصرف فائض الوقف على فقرائه، ثم إلى فقراء أقرب الثغور، وطلبوا من الناس أن لا يسكن الحصون إلا "من فيه القوة على الحرس والعساس والخروج عند وقوع النفير في الحصن".[26]

كما أجاز فقهاء الأندلس في بناء برج على صومعة مسجد بقرية قريبة من بلش لاستطلاع أخبار العدو. فبعد أن تعرضت هذه القرية لهجوم من طرف النصارى الأسبان وخربوها وخلت القرية من سكانها، وبقي جامعها قائم البناء، أجاز الفقهاء بناء برج على الصومعة من أحباس المسجد لإغاثة أهل بلش وقرى أخرى عند هجوم النصارى الأسبان.[27]

كما كان دور الفقهاء حازما ومشجعا على جواز استخدام فوائد أوقاف معينة لصالح أوقاف أخرى، خاصة بعد استيلاء النصارى الأسبان على بعض

المنارة للاستشارات

الثغور الإسلامية في شمال الأندلس، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في إحدى النوازل في المعيار سئل فيها:"...عمن حبس حبسا وشرط أن تنفذ غلته في مصالح حصن من حصون المسلمين في وجوه ذكرها فتغلب العدو على ذلك الحصن.

فأجاب بأن قال: تنفذ الغلة في مثل تلك الوجوه في حصن غيره."[28]

وقد ذكر الونشريسي في الجزء السابع من كتاب المعيار حادثة تاريخية تعرضت لها مدينة ألمرية[29] الأندلسية سنة 719هـ/1309م، تتمثل في الهجوم الذي قام به حاكم برشلونة [30] المسيحي على مدينة ألمرية أثناء حروب الاسترداد الأسبانية، وهذا ما ذكره أيضا المؤرخ ابن خلدون في العبر.

فقد جاء في النص الذي ذكره الونشريسي في المعيار أنه:" لما نزل البرشلون ألمرية، ونصب عليها برج عودين[31] ليد ارتفاعه سور المدينة ست قامات، وقربه من سور المدينة، ودخل فيه خمسمائة من المدرعين فدهش المسلمون، فانتدب أهل الشورة وعدوا ستة نفر من المسلمين كل واحد منهم بألف ذهب من العين إن أحرقوه، فخرج النفر المذكورين وأطلقوا النار فيه فاحترق بجميع من كان فيه، فسر المسلمون بذلك."[32]

وجاء النص الذي ذكره ابن خلدون في العبر كما يلي:" وراسل هرائدة بن دافونش، صاحب برشلونة أن يشغل أهل الأندلس من ورائهم، ويأخذ بحجزتهم فنازل ألمرية وحاصرها الحصار المشهور سنة سبع ونصب عليها الآلات وكان منها برج العود المشهور بطول الأسوار بمقدار ثلاث قامات، وتحيل المسلمون على إحراقه فأحرق".[33]

ويلاحظ مدى التقارب الكبير بين النصين مما يدل على أن كلاهما يخدمان فكرة تاريخية واحدة، رغم أن نص الونشريسي هو نص فقهي،

المنارة للاستشارات

وبالتالي يعتبر أبلغ دليل على الاعتماد على الكتب الفقهية في الدراسات التاريخية.

الإحالات:

---

(1) صالح أحمد العلي، مسوغات تجديد كتابة التاريخ، مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الرابع – المجلد الثامن والثلاثون، ربيع الثاني 1408هـ كانون الأول 1987م، المجمع العلمي العراقي، العراق، ص 21.

(2) الونشريسي، أحمد بن يحيى، كتاب الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية، نشر وتعليق، د. محمد الأمين بلغيت، لافوميك، الجزائر، 1985، ص 8.

(3) الونشريسي، المصدر السابق، ص 10.

(4) عادل، نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، 1983، ص 344.

(5) أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16 – 20)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ج1، ص 124.

(6) الونشريسي، أحمد بن يحيى، المصدر السابق، ص 11.

(7) الونشريسي، أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى الدكتور محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981، ص 160.

(8) الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 161.

(9) نفسه، ج7، ص92.

(10) نفسه، ج7، ص272.

(11) نفسه، ج7، ص45.

(12) نفسه، ج7، ص25.

(13) نفسه، ج7، ص182.

(14) نفسه، ج7، ص152.

(15) نفسه، ج7، ص481.

(16) نفسه، ج7، ص139.

المنارة للاستشارات

[17] نفسه، ج7، ص341.

[18] نفسه، ج7، ص248.

[19] هو سعيد بن محمد التجيني العقباني التلمساني (720 – 811هـ/1320- 1408م) إمام تلمسان وعلامتها في عصره، أخذ عن ابني الإمام والآبلي حدق علوما جمة من تفسير وأصول فقه ومنطق، وحساب وهندسة، ولي القضاء ببجاية، ومراكش وسلا ووهران وتلمسان، أنظر: عبد الحميد حاجيات، أبو موسى الزياني حياته وآثاره، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1982، ص 36.

[20] الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 264.

[21] نفسه، ج7، ص91.

[22] الرباطات، وواحدها الرباط، فكانت في الأصل تطلق على الثكنات العسكرية التي تبني على الحدود الإسلامية وقرب الثغور التي يرابط فيها المجاهدين ويلازمونها مترصدين للعدو ومستعدين للغزو، أنظر: فتحي، عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، القاهرة: دار الكتاب العربي، ص 314.

[23] الثغور، هي مناطق حدودية بين المنطقة الإسلامية والمنطقة المسيحية، تتولى حراسة النصارى عن قرب، وهكذا كانت مهمة الثغور مهمة دفاعية وهجومية في نفس الوقت، تتألف من حواجز وسلاسل من القلاع والحصون، أنظر: فتحي، عثمان، المرجع السابق، ص 313.

[24] أحمد محمد عبد العظيم، الجمل، دور نظام الوقف الإسلامي في التنمية الاقتصادية المعاصرة، القاهرة: دار السلام، 2007، ص 173.

[25] الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 466.

[26] نفسه، ج7، ص236.

[27] نفسه، ج7، ص145.

[28] نفسه، ج7، ص424.

[29] ألمرية، مدينة أندلسية تقع في الساحل الجنوبي استولى عليها الأسبان في سنة 896هـ/1490م، أنظر: ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبري والوجود الأندلسي بالجزائر، بيروت: دار الغرب الأندلسي 1424هـ – 2003م، ص 362.

المنارة للاستشارات

(30) برشلونة: سقطت هذه المدينة بيد النصارى في 375هـ/985م، أنظر: ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 354.

(31) برج العودين، تعرف بأسماء أخرى مثل الدبابة، والكبش، وهي عبارة عن آلة متحركة من الخشب السميك وتركب على عجلات مستديرة ليسهل دفعها في اتجاه الأسوار وسحبها، وكان المحاربون يصعدون عليها لتسلق الأسوار أو يخفتون في جوفها لنقي الأسوار وهدمها، أنظر: أحمد عبد الرزاق أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة: دار الفكر العربي 1990، ص 202.

(32) الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 147.

(33) ابن خلدون، عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ج7، ص 426.

المنارة للاستشارات